خطبة الجمعة القادمة (صوت الدعاة)
نخبة متميزة
من علماء الأزهر الشريف
ووزارة الأوقاف المصرية
جريدة صوت الدعاة
صوت الدعاة
www.doaah.com

لَابُدَّ مِنَ العِلْمِ وَالتَّعَلُّمِ

27 ربيع الأول 1447هـ - 19 سبتمبر 2025م

إعداد: رئيس التحرير د. أحمد رمضان

الموضـــــــوع

الحمدُ للهِ الَّذي خلقَ الإنسانَ فسوَّاهُ، وعلَّمَهُ ما لم يكنْ يعلمُ فهداهُ، وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحده لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ سيِّدَنا محمَّدًا عبدُه ورسولُه. ثمَّ أما بعد:

العناصر:

العنصر الأول: منزلةُ العلمِ والحثُّ عليهِ في الإسلام.

العنصر الثاني: صُوَرٌوَنَمَاذِجُ مُشْرِقَةٌ فِي حِرْصِ السَّلَفِ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ.

العنصرُ الثَّالث: بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ.

العنصر الرابع: مَسْؤُولِيَّتُنَا فِي نَشْرِ الْعِلْمِ وَتَرْبِيَةِ الْأَجْيَالِ عَلَيْهِ.

العنصر الأوّل: منزلةُ العلمِ والحثُّ عليهِ في الإسلام

أيُّها الأحبَّةُ في الله، لقد افتتحَ اللهُ عزَّ وجلَّ هذا الدِّينَ بأمرٍ جليلٍ يعبِّرُ عن أعظمِ ما يحتاجُه الإنسانُ في مسيرته، فقال سبحانه: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: 1-5].

إنَّها آياتٌ خمسٌ، ولكنَّها وضعت أساسَ نهضةِ الإنسانِ، بدأها الحقُّ جلَّ وعلا بكلمةٍ واحدة: اقرأ؛ وكأنَّها صرخةُ وعيٍ توقظُ العقولَ من سباتِها، وتفتحُ لها بابَ العلمِ والبحثِ والفهمِ.

وقد جعلَ اللهُ سبحانه أهلَ العلمِ في منزلةٍ رفيعةٍ؛ فقال جلَّ شأنه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: 9]. فلا يستوي العالمُ والجاهلُ، كما لا يستوي النورُ والظلمةُ، والحيُّ والميتُ، والنافعُ والضارُّ. وقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: 11].

قال القرطبي: "أَيْ فِي الثَّوَابِ فِي الْآخِرَةِ وَفِي الْكَرَامَةِ فِي الدُّنْيَا، فَيَرْفَعُ الْمُؤْمِنَ عَلَى مَنْ لَيْسَ بِمُؤْمِنٍ وَالْعَالِمَ عَلَى مَنْ لَيْسَ بِعَالِمٍ. وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: مَدَحَ اللَّهُ الْعُلَمَاءَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ. وَالْمَعْنَى أَنَّهُ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُؤْتَوُا الْعِلْمَ (دَرَجاتٍ) أَيْ دَرَجَاتٍ فِي دِينِهِمْ". تفسير القرطبي ج17، ص299.

وتأمّلوا –رحمكم الله– كيف رفعَ اللهُ قدرَ العلمِ حتى في عالمِ الحيوان، فأحلَّ صيدَ الكلبِ المعلَّمِ، وحرَّمَ صيدَ الجاهلِ غيرِ المعلَّم، فقال: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ [المائدة: 4]. فإذا كان الكلبُ يرتفعُ بالعلمِ درجةً، فما بالُكم بالإنسانِ إذا تشرَّف بحملِ علمِ القرآنِ والسنَّة؟!

وجاء في الصحيح: "أَنَّ نَافِعَ بْنَ عَبْدِ الْحَارِثِ، لَقِيَ عُمَرَ بِعُسْفَانَ، وَكَانَ عُمَرُ يَسْتَعْمِلُهُ عَلَى مَكَّةَ، فَقَالَ: مَنِ اسْتَعْمَلْتَ عَلَى أَهْلِ الْوَادِي، فَقَالَ: ابْنَ أَبْزَى، قَالَ: وَمَنِ ابْنُ أَبْزَى؟ قَالَ: مَوْلًى مِنْ مَوَالِينَا، قَالَ: فَاسْتَخْلَفْتَ عَلَيْهِمْ مَوْلًى؟ قَالَ: إِنَّهُ قَارِئٌ لِكِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَإِنَّهُ عَالِمٌ بِالْفَرَائِضِ، قَالَ عُمَرُ: أَمَا إِنَّ نَبِيَّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ قَالَ: **إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ**" (رواه مسلم ح 817).

أيُّها الإخوةُ الكرام، لقد قرنَ اللهُ عزَّ وجلَّ شهادةَ العلماءِ بشهادتِه، فقال: ﴿**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ**﴾ [آل عمران: 18]. وهذه منزلةٌ عظيمةٌ ما بعدها منزلةٌ، فالعلماءُ شهداءُ التوحيدِ، الأمناءُ على الوحيِ، ورثةُ الأنبياءِ.

وفي الحديثِ الشريف: «**مَن سلكَ طريقًا يَلتَمِسُ فيهِ عِلمًا، سهَّلَ اللهُ لهُ طريقًا إلى الجَنَّةِ، وإنَّ الملائكةَ لتَضعُ أجنحتَها رِضا لطالبِ العِلمِ، وإنَّ طالبَ العِلمِ يَستغفرُ لهُ مَن في السَّماءِ والأرضِ، حتى الحيتانُ في الماءِ، وإنَّ فضلَ العالِمِ على العابِدِ كفضلِ القمرِ على سائرِ الكواكِبِ، إنَّ العلماءَ هُم ورثةُ الأنبياءِ، وإنَّ الأنبياءَ لم يُورِّثوا دينارًا ولا درهمًا، إنَّما ورَّثوا العِلمَ، فمَن أخَذَهُ أخَذَ بحظٍّ و افرٍ**". الترمذي (2682)، وابن ماحه (223) واللفظ له، صحيح.

بل إنَّ النبي ﷺ جعل طلبَ العلمِ فداءً لأسرى بدر، فمن لم يكن له مالٌ يفتدي به نفسَه، جعل فداءَه أن يعلِّمَ عشرةً من أبناءِ المسلمين القراءةَ والكتابةَ. وهذا أعظمُ دليلٍ على أنَّ بناءَ الأمةِ يبدأ من الكلمةِ والمعرفةِ قبل السيفِ والقوَّة.

العنصرُ الثَّاني: صُوَرٌ ونَماذِجُ مُشْرِقَةٌ في حِرْصِ السَّلَفِ على طَلَبِ العِلْمِ

سُئِلَ بعضُ العلماء: بِمَ أدركتَ العلم؟ فقال: بالصبرِ والمصباحِ، والجلوسِ إلى الصباح. يريد أنَّه سهرَ الليالي، وأفنَى الأوقاتَ، وذلَّلَ الصعابَ في سبيلِ تحصيلِ العلمِ.

وها هو الإمامُ أحمدُ بنُ حنبلٍ يُرى وفي يدِه المحبرةُ والقلمُ وهو شيخُ الإسلام، فيُقال له: إلى متى وأنتَ مع المحبرة؟ فيجيبُ: مع المحبرةِ إلى المقبرة. كلمةٌ صارت مثلاً خالدًا في دوامِ التعلُّمِ حتى آخرِ العمر. مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي ص37.

وقيل للإمامِ الشافعيّ: كيفَ حرصُكَ على العلم؟ فقال: حرصَ الجَموعِ المنوعِ على بلوغِ لذَّةِ المال. فقيل: فكيفَ طلبُكَ له؟ قال: طلبَ المرأةِ المضِلَّةِ ولدَها، ليس لها غيرُه. مناقب الشافعي للبيهقي ج2، ص144. أرأيتم التشبيهَ البليغَ؟! شابٌّ يصفُ تعلُّمَهُ بالحرصِ الذي لا يكلُّ ولا يملُّ، كالأمِّ التي تبحثُ عن وحيدِها المفقودِ.

وذكروا أنَّ الإمامَ الخليلَ بنَ أحمدَ الفراهيديَّ –واضعَ علمِ العَروضِ –سُئل: ما أثقلُ ساعةٍ عليك؟ قال: ساعةُ آكلُ فيها. الدينوري في المجالسة وجواهر العلم (ج3/ص123). لأنَّه كان يرى أنَّ وقتَ الأكلِ يقطعُه عن التحصيلِ والمطالعةِ. وكذلك داودُ الطائيُّ كان يشربُ الفَتِيتَ (وهو الخبزُ المفتوتُ بالماءِ) ولا يمضغُ الخبزَ؛ توفيرًا للوقتِ لقراءةِ خمسينَ آيةً! رواه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم (ج3/ص125).

وها هو ابنُ أبي حاتمٍ صاحبُ "الجرحِ والتعديل" يقول: كنا في مصرَ سبعةَ أشهرٍ لم نأكلْ فيها مرقةً؛ كلُّ نهارِنا مقسومٌ لمجالسِ الشيوخ، وبالليلِ للنسخِ والمقابلة. ويذكر أنَّهم اشترَوا سمكةً، فلم يجدوا وقتًا لشويها ... ثم قال كلمتَه المشهورة: *إنَّ العلمَ لا يُستطاعُ براحةِ الجسد*. الذهبي في سير أعلام النبلاء (ج13/ص263). تذكرة الحفاظ (3/ 830).

وأما **ابنُ عقيلٍ الحنبليُّ –رحمه الله –فكان يقول**: إني لا يَحلُّ لي أن أضيّعَ ساعةً من عمري، حتى إذا تعطَّل لساني عن مذاكرةٍ، وبصري عن مطالعةٍ، أعملتُ فكري في حالِ راحتي، فلا أنهضُ إلا وقد خطر لي ما أسطرُه. ذيل طبقات الحنابلة ج1، ض324. **وكان يقول**: أنا أقصرُ بغايةِ جهدي أوقاتَ أكلي، حتى أختارَ سفَّ الكعكِ وتحسِّيه مع الماء على الخبزِ؛ لأجلِ ما بينهما من تفاوتِ المضغ، توفيرًا على مطالعةٍ أو تسطيرِ فائدة. تذكرة الحفاظ (ج4/ص1342). **ويقول عبدُ الرحمنِ**

ابنُ الإمامِ أبي حاتمٍ: ربما كان أبي يأكلُ وأقرأُ عليه، ويمشي وأقرأُ عليه، ويدخلُ الخلاءَ وأقرأُ عليه، ويدخلُ البيتَ في طلبِ شيءٍ وأقرأُ عليه. سير أعلام النبلاء (ج13/ص265). فانظروا إلى الحرصِ الذي جعلهم يُخرجون للأمةِ كتبًا عظيمةً باقيةً، كـ الجرح والتعديل والتفسير والمسند.

بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ

أيُّهَا الإخوةُ الأحبَّة، إنَّ العلمَ في دينِ الإسلامِ ليس غايةً في ذاتِه، وإنَّما هو وسيلةٌ إلى العملِ الصالحِ، ودليلٌ إلى الطريقِ المستقيمِ. فالعلمُ بلا عملٍ كشجرةٍ بلا ثمرٍ، وكالسحابِ الذي لا يُمطِرُ، بل قد يكونُ العلمُ حُجَّةً على صاحبِه يومَ القيامةِ إن لم يعملْ به. يقول اللهُ تعالى في كتابه العزيز: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصَّف: 2-3.

وعن أسامةَ بنِ زيدٍ –رضي اللهُ عنه –قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: "يُجَاءُ بالرَّجُلِ يومَ القِيَامَةِ فيُلْقَى في النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أقْتَابُهُ - أي أمعاؤُه - في النَّارِ، فَيَدُورُكما يَدُورُ الحِمَارُ برَحَاهُ، فَيَجْتَمِعُ أهْلُ النَّارِ عليه فيَقولونَ: أيْ فُلَانُ، ما شَأْنُكَ؟ أليسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بالمَعروفِ وتَنْهَانَا عَنِ المُنْكَرِ؟! قالَ: كُنْتُ آمُرُكُمْ بالمَعروفِ ولَا آتِيهِ، وأَنْهَاكُمْ عَنِ المُنْكَرِ وآتِيهِ". أخرجه البخاري (3267)، ومسلم (2989) .

يا أيُّها الرَّجُلُ المعلِّمُ غيرَهُ *** هلا لنفسِكَ كان ذا التعليمُ
تصفُ الدواءَ لذي السقامِ وذي الضَّنا *** كيما يصحَّ به وأنتَ سقيمُ
ابدأ بنفسِكَ فانهَها عن غَيِّها *** فإذا انتهت عنهُ فأنتَ حكيمُ
لا تنهَ عن خُلُقٍ وتأتي مثلَهُ *** عارٌ عليكَ إذا فعلتَ عظيمُ

وعن ابنِ مسعودٍ –رضي اللهُ عنه –قال: قال رسولُ الله ﷺ: "لا تزولُ قدما عبدٍ يومَ القيامةِ حتى يُسألَ عن أربعٍ: عن عمرِه فيما أفناه، وعن علمِه ماذا عمل به، وعن مالِه من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسدِه فيما أبلاه» (أخرجه الترمذي(2417) وقال حسن صحيح).

العنصرُ الثالث: مَسْؤُولِيَّتُنَا فِي نَشْرِ الْعِلْمِ وَتَرْبِيَةِ الْأَجْيَالِ عَلَيْهِ

أيُّهَا الإخوةُ الأحبَّةُ: إنَّ أعظمَ ما تُبنى به الأممُ وتنهضُ به الحضاراتُ هو نشرُ العلمِ وتوريثُه للأجيالِ، فإنَّ الأمةَ التي لا تهتمُّ بالعلمِ ولا تُورِّثُه أبناءَها أمةٌ محكومٌ عليها بالتخلُّفِ والضياعِ.

لقد كان نبيُّنا محمَّد ﷺ المعلِّمَ الأوَّلَ للأمةِ، أرسله اللهُ رحمةً للعالمين، فقام بتعليمِ الناسِ القرآنَ، وغرسِ معاني العقيدةِ، وتربيةِ النفوسِ على الفضيلةِ. قال اللهُ تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [آل عمران: 164].

فانظروا –رحمكم الله –كيف اجتمعت في رسالتِه مهمَّةُ التزكيةِ والتعليمِ معًا؛ فبالعلمِ تُبنى العقولُ، وبالتربيةِ تُهذَّبُ النفوسُ، وبهما معًا تُبنى الحضارةُ الإسلاميةُ.

مكانة المعلم: أيُّها الأحبَّةُ، إنَّ للمعلِّمِ مكانةً عظيمةً في الإسلامِ، فهو الذي يُبلِّغُ العلمَ ويزرعُ القيمَ في قلوبِ الناشئةِ. وقد شبَّه النبيُّ ﷺ المعلِّمَ بالمصباحِ الذي يُضيءُ للناسِ طريقَهم، فقال: "مَثَلُ ما بَعَثَنِي اللَّهُ به مِنَ الهُدَى والعِلْمِ، كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثِيرِ أصابَ أرْضًا، فَكانَ مِنْها نَقِيَّةٌ، قَبِلَتِ الماءَ، فأنْبَتَتِ الكَلَأَ والعُشْبَ الكَثِيرَ، وكانَتْ مِنْها

أجادِبُ، أمْسَكَتِ الماءَ، فَنَفَعَ اللَّهُ بها النَّاسَ، فَشَرِبُوا وسَقَوْا وزَرَعُوا، وأَصابَتْ مِنْها طائِفَةً أُخْرَى، إنَّما هي قِيعانٌ لا تُمْسِكُ ماءً ولا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذلكَ مَثَلُ مَن فَقُهَ في دِينِ اللَّهِ، ونَفَعَهُ ما بَعَثَنِي اللَّهُ به فَعَلِمَ وعَلَّمَ، ومَثَلُ مَن لَمْ يَرْفَعْ بذلكَ رَأْسًا، ولَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الذي أُرْسِلْتُ بهِ» أخرجه البخاري (79)، ومسلم (2282) .

فالمعلِّمُ إمَّا أن يكونَ أرضًا خصبةً تُنبتُ الخيرَ وتنشرُه، أو يكونَ حافظًا للعلمِ يُبلِّغه وإن لم يُثمر في نفسِه، أو يكونَ قاعًا أجردَ لا يمسكُ علمًا ولا يُثمرُ نفعًا، والعياذ بالله.

واجبُ الأُسرةِ في نشرِ العلم: أيُّها المسلمون: إنَّ التربيةَ والتعليمَ يبدآن من البيتِ قبل المدرسةِ. فالأبُ والأمُّ هما أوَّلُ معلِّمَين للأبناء، فإن صَلَحا صَلَح الأبناءُ، وإن فسدا فسدت الأجيالُ.

وقد قال النبي ﷺ: «كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيتِه ...والرجلُ راعٍ في أهلِه وهو مسؤولٌ عن رعيتِه، والمرأةُ راعيةٌ في بيتِ زوجِها ومسؤولةٌ عن رعيتِها» (متفقٌ عليه) أخرجه البخاري (2554)، ومسلم (1829) .

فأولادُنا أمانةٌ في أعناقِنا، وسيسألُنا اللهُ عنهم يومَ القيامة: هل غرَسْنا في قلوبِهم حبَّ القرآنِ والعلمِ النافعِ، أم تركناهم نهبًا للشهواتِ والشبهاتِ؟!

قال الإمامُ الغزاليُّ –رحمه الله –في إحياء علوم الدين: "الصَّبِيُّ أَمَانَةٌ عِنْدَ وَالِدَيْهِ، وَقَلْبُهُ الطَّاهِرُ جَوْهَرَةٌ خَالِيَةٌ مِنْ كُلِّ نَقْشٍ وَصُورَةٍ، وَهُوَ قَابِلٌ لِكُلِّ نَقْشٍ، وَمَائِلٌ إِلَى كُلِّ مَا يُمَالُ بِهِ إِلَيْهِ، فَإِنْ عُوِّدَ الخَيْرَ وَعُلِّمَهُ نَشَأَ عَلَيْهِ؛ فَسَعِدَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ أَبَوَاهُ، وَكُلُّ مُعَلِّمٍ لَهُ وَمُؤَدِّبٍ، وَإِنْ عُوِّدَ الشَّرَّ وَأُهْمِلَ إِهْمَالَ البَهَائِمِ؛ شَقِيَ وَهَلَكَ، وَكَانَ الوِزْرُ فِي رَقَبَةِ القَيِّمِ عَلَيْهِ وَالوَالِي لَهُ" إحياء علوم الدين ج4، ص106.

القدوةُ في نشرِ العلم: إنَّ من أعظم وسائلِ نشرِ العلمِ أن يكونَ المعلمُ والداعيةُ قدوةً حسنةً لتلاميذِه وأبنائِه. فقد كان السلفُ يربُّون أولادَهم قبل تعليمِهم، ويغرسون فيهم الهيبةَ والجديةَ قبل أن يملأوا عقولَهم بالمعلوماتِ.

يقول عبدُ اللهِ بنُ المبارك –رحمه الله –: طلبتُ الأدبَ ثلاثين سنةً، وطلبتُ العلمَ عشرين سنةً. ابن الجزري في كتاب غاية النهاية في طبقات القراء 660/2 وذلك ليُشيرَ إلى أنَّ التربيةَ مقدَّمةٌ على التلقين.

وقد رُوي عن الإمامِ مالكٍ –رحمه الله –أن أمَّه كانت تقول له: اذهب إلى ربيعةَ فخذْ من أدبِه قبل علمِه.

واجبُ الأمةِ تجاه المعلمِ والمتعلم:

إنَّ الأمةَ التي لا تُكرمُ معلِّميها ولا تحفظُ مكانتَهم لن تنالَ رفعةً ولا عزًّا. فالمعلمُ هو الذي يصنعُ الأجيالَ، ويُنشئُ العلماءَ، ويُربّي القادةَ. أيُّها الأحبَّةُ: إنَّ نشرَ العلمِ ليس مسؤوليَّةَ العلماءِ فقط، بل مسؤوليَّةُ المجتمعِ كلِّه؛ بالقراءةِ، والدعمِ، ونشرِ المعرفةِ، وتيسيرِ سُبُلِها. واليومَ وقد يسَّر اللهُ لنا الوسائلَ الحديثةَ من كتبٍ ومكتباتٍ إلكترونيةٍ ومحاضراتٍ ودروسٍ عبر الشبكاتِ؛ فإنَّ الواجبَ يزدادُ علينا في أن نستثمرَ هذه الوسائلَ لنشرِ العلمِ الشرعيِّ النافعِ، لا أن نجعلَها وسيلةً للهوِ وإضاعةِ الأوقات.

العلمُ هو النورُ الذي يُضيءُ للناسِ طريقَهم، فلا يعيشون في ظلماتِ الجهلِ والضلالِ.

د. أحمد رمضان